



19 فبراير 2012

كتب: بقلم: جمال عبد الغفار بدوي

من أجمل وأطرف مقامات "بديع الزمان الهمذاني"، يعرض فيها مثلاً للحيل التي يستخدمها المكذوب للحصول على المال، والمضحك الذي برز واضحاً فيها، هو تصوير نفسية المحتال وهو يخرج من مأزق ليقع في آخر، لا يثنيه عن عادته وطبعه شيء، من ضرب أو إيذاء يلحق به، وقد استخدم "الهمذاني" موقفين أو مشهدين الأول منهما يدعي فيه "أبو الفتح" أن الرجل الذي جهزه أهله للدفن لم يمت بعد، وسيعيده إلى الحياة بعد يومين والمشهد الثاني يصوره حين ادّعى لأهل قرية أخرى قدرته على دفع السيل عنها، حرصاً على إبراز شخصية المكدي إذ لا تثنيه المواقف الصعبة التي يتعرض لها عن ممارسة هوايته في الاحتيال!

يمهد "بديع الزمان" -كعادته- تمهيداً ناجحاً للأحداث التي سيرعرضها:

(حدثنا "عيسى بن هشام" قال: لما قفلنا من "الموصل"، وهمنا بالمنزل، ومُلكت علينا القافلة، وأخذ منا الرَّجُل والراحلة، جَرَتْ بِي الخُشاشَةُ إلى بعض قرأها ومعني "الإسكندري أبو الفتح"، فقلت: أين نحن من الحيلة؟ فقال: يكفي الله، ودفعنا إلى دارٍ قد مات صاحبها، وقامت نوادبها، واحتفلت بقومٍ قد كَوَى الجزع قلوبهم، وشفت الفجيعَةَ جيوبهم ونساء قد نشرت شعورهن، يضربن صدوهن، وجدّون عُقودَهُنَّ، يَلْطِمْنَ خدودهن، فقال "الإسكندريُّ": لنا في هذا السواد نخلة، وفي هذا القطيع سَحْلَةٌ... (1).

قد ملأ الكاتب الصورة حركة ونواجا، جسدها وجعلها مائلة أمام العين، تبعث في النفس رهبة الموت وجلالة، وهو ما يحقّز القارئ متابعة الحكاية إذ تتناقى ملابسات الأحداث مع نيّة "عيسى" و"أبي الفتح" وتأمّرهما على الاحتيال الذي عبّر عنه في قوله:

أين نحن من الحيلة؟ فقال: يكفي الله، ودفعنا إلى دارٍ قد مات صاحبها...).

حرص "بديع الزمان" على أن يوضّح القصد والنيّة عند الرجلين للاحتيال، وهي براعة منه إذ تأتي الأحداث بعد ذلك في صورة يعتقد القارئ صعوبة الكدية معها، غير أن المحتال لا يعييه الحيل، فادّعى للقوم أن الرجل حيٌّ لم يمت بعد، واستطاع خداعهم:

(.. وقام "الإسكندري" إلى الميت، فنزع ثيابه ثم شدّ له العمام، وعلق عليه تمانم، وألحق الزيت، وأخلى البيت، وقال: دعوه، ولا تردعوه، وإن سمعتم له أنبثاً فلا تُجيبوه، وخرج من عنده وقد شاع الخبر وانتشر، بأن الميت قد نشر..).

لقد بنى المحتال خطته معتمداً على تشبّث أهله بسراب الأمل، وهي فطرة الناس في هذه المواقف، فإذا توفرت معها سداحة وغفلة، تلاعب المحتال بهم، واعتمد نائياً على دور الشائعات وسهولة انتشارها بين السوق والدهماء إذ سارت الشائعة (بأن الميت قد نُشر) هكذا!

ويلاحظ نوالي الأفعال التي أتى بها- في الفقرة السابقة- "أبو الفتح" وسرعنتها مما يشخّص أمام أعيننا اندماجه المُوجي باهتمامه وجدّيته، وخطورة الأمر، ولئلهي القوم ولا يدع لهم فرصة للتفكير أو العمل بغير ما يطالبهم به.

أخذت الهدايا والمبارك تنهال على "أبي الفتح" وصاحبه، وعلى العكس مما تنتظر، لم يستطرد "الهمداني"، ولم يقف كثيرًا عند هذه النقطة، فهناك التفكير في الفرار بهذه الهدايا والمبارك، وبرغم جهدهما وحرصهما، فإن الفرصة لا تسنح للهرب، وبطالبيهم القوم بإنجاز الوعد، فيستمهلهم "أبو الفتح" يومًا آخر، فيمهلونه إياه، ويحين الوقت الذي لا مفر منه واجتمعت النساء وأقبل الرجال أفواجًا، وسار معهم "الإسكندري" في مشهد مضحك منير: (فقال "الإسكندري": قوموا بنا إليه، ثم حذر الثمائم عن يده، وحل العنائم عن جسده، وقال أنيموه على وجهه فأنيب ثم قال: أفيموه على رجليه فأقيم، ثم قال: خلوا عن يديه، فسقط راسيًا وطن "الإسكندري" بغيه، وقال: هو ميت كيف أحبيه، فأخذه الجف، وملكنه الأكف، وصار إذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى، ثم تشاغلوا بتجهيز الميت فانسلنا هارين...).

لقد كانت من بين وصايا "عليكا" في "عهد التطفل" احتمال الأذى والصبر عليه، وها هو "الإسكندري" يؤمن بهذه الوصية ويبرهن على ذلك في صورة عملية، فلم يمنع الإيذاء الذي تعرض له من معاودة الاحتياي، وانتهز أول فرصة سنحت له - ولما يضمن جراحه بعد- وشرع في ممارسة مهنته.

ويسجل "بديع الزمان" ما يتمتع به المحتال من وقاحة حين انكشف أمره، مع صغار نفسه الذي بدا واضحًا في طنين صوته كما يرى الشيخ "محمد عبده" في شرحه:

(وإنما لم يقل صاح؛ لأنه صوت الخزي والخجل، فهو ضعيف كأنه طنين الذباب) (2).

وفي القرية الثانية تنجح حيلة "أبي الفتح" ويتيسر له الهرب فقد وعد أهلها بدفع السيل وصدده عنهم إن نفذوا أمره المتمثل في ثلاثة أشياء:

- اذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء، - وأتوني بجارية عذراء، - وصلوا خلفي ركعتين...).

لقد جمع بين الأساطير، والنزعة الدينية، والمتعة الحسية وهي أمور يلتبس بعضها ببعض في وجدان العامة والطبقات التي لاحظ لها من الثقافة، وتبع في نفوسهم الرهبة وتدفعهم إلى تصديق المحتال، شأن المشعوذين والدجالين الذين يحيطون أنفسهم بالخرافات والخرافات.

وبعد أن نعد القوم ما طلب منهم ولم يتبق غير الركعتين طلب منهم الصبر وعدم الإتيان بلغو أو سهو، ونعرف أنه قد أعدّ العدة للهرب والقوم ساجدون، وتبلغ الدقة الفنية منتهاها عند "بديع الزمان" حين جعل الهرب في الركعة الثانية بعد اطمئنان القوم له، ومجاهدتهم أنفسهم، وحرصهم على عدم الحركة، إذ قاربت الصلاة على الانتهاء، ومضى منها أكثر مما بقي، وهو توقيت قد وقته "الهمداني" بدقة ونجاح.

* الهوامش:

1- مقامات بديع الزمان الهمداني - ص 95

2- المصدر السابق - ص 98

www.ikhwanonline.com/101687